75-960931

المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الاعلام - الجمهورية العراقية - المجلد السادس - العدد الاول ١٣٩٧ - ١٩٧٧

دراسة في فن الأدب العربي

(في ١٩٩ صفحة)

تاليف : اندراش حاموري

مطبعة جامعة برنستون ، ١٩٧٤

ON THE ART OF MEDIEVAL ARABIC LITERATURE

By Andras Hamori

(xii & 199 pages), Princeton, 1974

بقلم الدكتور

إحسان عباس

يتضمن هذا الكتاب سبعة فصول تقع في ثلاثة ابواب : يتناول الباب الاول منها ـ خلال فصول ثلاثة ـ الحديث عن التحولات في الانواع والمواقف الادبية : كيف كان الشاعر الجاهلي يمتـــل دور البطولة ، وكيف كانت قصيدته صورة عن هـــذا الموقف نفسه من حيث علاقته بمشكلة الموت ، ثم كيف اصبح كل من شاعر القصيدة الغزلية وشاعر القصيدة الخمرية ـ تحت وطاة عوامل اجتماعية واقتصادية مختلفة يقوم بدور « المهرج » الشعائري (اقل منهما حظا شاعر النقيضة الذي انتحى نحو المهاترة والسباب) ، ثم وقفة عند شعر الوصف وما اصاب القصيدة ـ او المقطوعة ـ الوصفية من تحول جذري ، وبذلك ينتهي الباب الاول .

وفي فصلين يتكون منهما الباب الثاني يتحدث المؤلف عن تقنية القصيدة اعني عن الاجزاء التـي تتركب منها وعن الوسائل الفنية التي يعتمدهـــا الشاعر في البناء الشعري ، سواء ما كان من تلـك الوسائل بديعي المنزع او صوريا او غير ذلك . وبعد ذلك يجيء الباب الثالث ، وهو يبارح البابين السابقين في طبيعة موضوعه ، اذ يعقد فيه المؤلف فصـلين للحديث عن مبنى الحكاية ، مختارا لذلك حكايتين من الف ليلة وليلة .

ان هذا العرض لمحتويات الكتاب قد يعطي صورة متراخية متباعدة الطرفين للسياق الذي نهجه المؤلف ، فهو حينا يحكم القاعدة التاريخية التطورية في النظر الى القصيدة ، وهو حينا يفيء الى المنهج التحليلي في دراسة جزئيات القصيدة ، وهو مرة ثالثة يبارح دنيا الشعر الى اعماق المبنى النثري حسبما يمثله نوع من انواع الحكاية . والحق ان هذا التراخي لا يعدو ان يكون امرا ظاهريا ، فـان فصول الكتاب جميعا تمثل ترابطا دقيقا اذ هي تحاول ـ من زوايا مختلفة وعلى مستويات متعددة ـ ان ترصد بنية العمل الفني ، شعرا كان او نثرا ، وحين تتعدد زوايا الرؤية في رصد ظاهرة واحدة ، تصبح تلك الظاهرة ـ وهي هنا القصيدة او الحكاية ـ واقعة تحت اضواء كاشفة تجعل خفاياها الدقيقـة واضحة حتى للعين المجردة . ومنطلق الاستـــاذ حاموري في هذه الدراسة هو المذهب « البنيوي » الذي يرى في القصيدة مبنى شعائريا كالذي يراه الباحث الانثروبولوجي في مبنى الاسطورة ، مـــع فروق اساسية لابد منها . وقد عمد ـ في محافظته على الوحدة العامة بين الفصول ـ الى ربطها معـا بثلاثة عناصر كبرى وهي : عنصر الزمان ومدى صلة النماذج به على ما بينها من تباعد : وعنصر المفارقات المختلفة وطبيعتها في التقابل او التوازي او التضاد او التناوب ، وعنصر المقارنة المستمرة ـ في جميع الخطوات ـ بين الادب العربي ونماذج من الآداب الاخرى ، وهذا العنصر الثالث ينبيء عن اطـلاع واسع وقدرة على رؤية شمولية .

لذلك جاءت هذه الدراسة متميزة في ذاتها وبالمقارنة : اما في ذاتها فلأنها بما اوتيت من جدّة وجدّية محاولة مخلصة لتطبيق مقاييس جديدة على أدب قديم دون شطط او تعسف او جور ، واما بالمقارنة فلأن اكثر الدراسات التي تناولت القصيدة العربية ـ على ايدي كثير من الدارسين والنقاد من العرب وغيرهم ـ قد كانت تنحو منحى الاتهام والادانة والهجوم ، اذ يسارع الدارس او الناقد الى القول : ان القصيدة العربية تفتقر الى الوحدة العضوية ، او : ان القصيدةالعربية تجري على وتيرة واحدة ، او ان القصيدة العربية مجموعة من الابيات غير مترابطة ، تستطيع ان تسقط منها ما تريد دون ان يختل المعنى او يضطرب السياق . فجاء الدكتور حاموري ليقول بكل تواضع وثقة : كل شيء يحمل قانونه في ذاته ، فلم ارسال الاحكام من خارج ؟ دعونا ننظر في القصيدة ، في بنائها الخارجي والداخلي ، فانها بحكم تكوينها وبيئتها وجمهورها قد تتطلب الوحدة على نحو غير عضوي ، وقد يكون في مجمل عناصرها تكرار ولكن أهذا التكرار طبيعي ضروري او غير ذلك ؟ ثم ان الدراسات الكثيرة ما تزال ـ حتى اليوم ـ تدور حول القصيدة العربية فلا تفعل شيئا كثيرا سوى أن تبرز بعض مضامينها وتنشر بعض محتوياتها ، وتتحدث ـ اذا استوى لها حظ من الاصابة ـ عن تسلسل المواقف الخارجية والملامح العامة فيها ، وهكذا تجيء دراسة الاستاذ حاموري لنضع الامور في مواضعها الصحيحة : فالقصيدة ليست مضمونا ينشر او ملامح توصف ، وانما هي مبنى « تركيبي » ـ في اكثر الاحوال ـ يتعانق فيه محور المضمون والشكل تعانقا يجعل حتى الصنعة البديعية جزءا من متطلبات المضمون نفسه احيانا .

وقد اتيح للاستاذ حاموري ان يبين ـ على نحو يملك الاعجاب ـ كيف ان القانون العام الذي تقوم عليه القصيدة الجاهلية هو التوازن في العناصر الكبيرة والصغيرة على السواء ، وقد يقوم هذا التوازن باجراء التضاد او التقابل والتناظر ، ففي القصيدة عنصران متوازنان : النسيب وما يتصل به من اطلال ، والمرحلة عبر الصحراء ، وفي هذين العنصرين شخصيات : المراة والعاقة (وهما اساس ثنائية النظام في القصيدة) واذ يتحدث الشاعر عن المراة حديثه عن امل غير مرجو فانه يشير بذلك الى فقدان عنصر الزمن ، موازنا ذلك بحديث تفصيلي دقيق عن المكان ، وبينما يتضح الهدف المفقود ـ بكل ابعاده ـ في العلاقة بالمراة ، تسير الناقة الى غير هدف في الصحراء ، فالمراة بهذا رمز الحركة اللاارادية خلال الزمان ، والناقة رمز الحركةالارادية خلال المكان . واثناء الرحلة يخلق الشاعر في قصيدته توازنا جديدا بين منظر حمار الوحش واتنه (رحلة الجماعة) وبين منظر ثور الوحش المتفرد (رحلة الفرد) وطريقة صيد كل منهما (وفي خلال هذه الجزئيات موازنات اخرى) ، حتى ليمكن ان يقال ان القصيدة تعتمد على منطق خاص يقيم التوازن بين الوجدان والفقدان ، او بين الربح والخسارة .

ويخلص الاستاذ حاموري الى القول بان الوصف في هذا المبنى الشعائري يتميز بثلاثة امور : انه ثبوتي وانه شمولي وانه يمكن ان يعرف سلفا . وهذه العناصر الثلاثة قد تجعل القصيدة غير مثيرة او مؤثرة ، ولكن الامر على العكس من ذلك، فثبوتية الوصف تجعل السامعين اقدر على المشاركة (وازيد : ان هذه الثبوتية تمثل توازنا مع الحركة العامة للقصيدة) كما ان شموليته تعمق من تلك المشاركة ، فاما انه يمكن ان يعرف سلفا فذلك هو الامر الطبيعي « لان كل امراة وكل ناقة ليست سوى موضوع شعائري كون ضرورة ليوافق مفهوم كل فرد في الجماعة » (ص : ٢٧) .

تلك لمحة موجزة عن بعض ما حاوله المؤلف في الفصل الاول وحسب ، ويطول بي القول لو اردت ان اتحدث عن جميع المنجزات التي حققتها هذه الدراسة ، ولكن لا احسبني مغاليا حين اقول : ان كل فصل فيها لا يقل عمقا وبراعة افكار وجدة في التطبيق عن الفصل الاول . وسيقف القارىء المروي ـ معجبا اشد الاعجاب ـ عند ذلك التدرج الموازن بين شعر الغزل وشعر الخمر ، وكيف « تقزمت فيهما معاني البطولة القديمة وصورها ، على نحو ساخر ، حتى اصبحت ظلالا باهتة ، ثم عند ذلك الربط الفذ بين القصيدة القديمة والخمرية وقصيدة الوصف من حيث علاقة كل منها بالزمن ، فالقصيدة الجاهلية كانت تتخذ الزمن وسيلة من وسائل التوازن ، والخمرية ليست سوى تشبث شديد باللحظة الزمنية ، وقصيدة الوصف نوعان : نوع يستبعد الشاعر الزمن منه وكانه ينفي وجوده نفيا باتا ، ونوع ينزل فيه الشاعر على حكم الزمن نزولا تاما ، وحين يبلغ القارىء الصفحات الخاصة بتحليل القصائد (كقصيدة فتح عمورية لابي تمام او رثاء المتنبي لام سيف الدولة) وبتحليل المبنى النثري في حكايتي الف ليلة فانه لابد واجد في هذا التحليل معنى الكشف الجديد ، وما يزال قانون التوازن ـ من زوايا متعددة ـ امرا يحتكم اليه الدارس (وهذا ما يؤكد الوحدة الكلية في الكتاب) ، ففي

قصيدة فتح عمورية ـ مثلا ـ تحليل دقيق للتبادل بين النور والظلام ، ولهذا فان الغاية التي تسعى اليها القصيدة هي « الجلاء » والوضوح والخروج من قبضة الظلام بانتصار النور . وفي رثاء المتنبي لام سيف الدولة يتمدد جو من الابهام المستمد من حركة الصراع بين الحياة والموت .

لقد استطاع الدكتور حاموري في هذه الدراسة ان يقتحم ميدانا كان المستشرقون في الاغلب يتهيبونه مؤثرين الخوض في الامور التاريخية او اللغوية الصرف ، وذلك هو الممارسة التذوقية للنص الشعري والكشف عن جوانب الجمال التعبيري فيه. ففي هذه الدراسة ـ دون ان يصرح المؤلف بذلك ـ اختيار عامد للجميل لا لذي شعر يصلح مثلا على قاعدة ، وفيها وقوف عند ايحاءات التعبير ووقع اللفظة في النفس وقدرة على ادراك البراعة الجمالية. ومن اجل هذا كله وبسبب تنوع النماذج المدروسة، وجدة المقاييس المستخدمة ، واجراء المقارنات ، يجد القارىء انه بحاجة كبيرة الى ان يبذل قسطا غير قليل من التروي والتأمل لدى قراءة هذه الدراسة، ذلك ان دقة المؤلف تتطلب من قارئه قدرا مماثلا من الدقة ، ان لم يكن قدرا اكبر ، وهذه ضريبة لابد منها لمن شاء ان يستخلص الفائدة والمتعة معا من عمل نقدي جديد عميق جليل . فاذا فعل القارىء ذلك لم يملك الا ان يسأل في النهاية : ما دامت مقاييس هذا النقد تطبق على نماذج مختارة فلم استبعدت القصيدة الجاهلية التي تقوم على موضوع واحد لا يتضح فيه عنصر التوازن بسهولة ؟ ولم يكون جميل ممثلا للغزل دون غيره ؟ وهل يمكن لهذه المقاييس ان تطبق على نسيب الاعراب الذي تنبهم فيه شخصية الشاعر ولا تبقى فيه سوى عناصر مشتركة من الوجد والحنين واللهفة والبكاء ؟ وهل مبنى المقامة (وغيرها من الصور النثرية) صالح للدراسة على هذا الاساس ؟ وهل التوازن في القصيدة الجاهلية صنو التوازن في المبنى « المعقد » لدى ابي تمام والمتنبي ؟ وهل بعد المتنبي نماذج صالحة لمثل هذه الدراسة ؟ ان كثرة الاسئلة دليل على مدى ما تفتحه هذه الدراسة من آفاق امام القارىء ، وليس في مقدور كتاب واحد ان يجيب عن كل ما يثار حول موضوع كبير متعدد الجوانب ذي تاريخ طويل . وحسب هذه الدراسة ان تكون انموذجا يحتذى ، وان تعد خطوة هامة نحو « بويطيقا » جديدة للادب العربي ، شعره ونثره .